

رواية الشعر العربي القديم
The novel of ancient Arabic poetry

د. عبد الكريم معمري*

جامعة المسيلة الجزائر

abdelkrim.mammeri@univ-msila.dz

المعلومات المقال	الملخص:
تاريخ الارسال: 2021/10/15 تاريخ القبول: 2021/12/23 الكلمات المفتاحية: ✓ الرواية الشفوية ✓ الشعر العربي القديم	إنّ مجتمعا عربيا بدائيا جاهليا لا يعرف الكتابة ولا القراءة مثل المجتمع الجاهلي لتكون الرواية هي أهمّ وسائله، بل إنّ هذا الأمر إنما يُعَمَّم على كل العصور وفي كلّ المجتمعات حتى وإن كان هذا في عصرنا الذي نعيش فيه، ولذا فنحن مضطرون في دراستنا هذه إلى أن نأتي على جملة من النصوص والقرائن التي تُظهر جوّ الرواية، وأهم مكوّناتها وعناصرها، وكيف كانت طرقها التي جعلت العرب بعد ذلك الوقت يتجهون نحو التدوين وأشكاله، وكذا تأثرهم بمن كانوا قد سبقوهم إلى ذلك من الأمم المجاورة.
Article info	Abstract :
Received 15/10/2021 Accepted 23/12/2021 Keywords: ✓ oral report ✓ ancient arabic poetry	<i>A primitive, ignorant Arab society does not know writing or reading like the pre-Islamic society, so that the oral report is the most important means of it. On a number of texts and clues that show the atmosphere of the oral report, its most important components and elements, and how its methods were that made the Arabs after that time turn towards blogging and its forms, as well as their influence on those who had preceded them from neighboring nations.</i>

لقد كانت الرواية⁽¹⁾ محصورة فيما مضى بالماء المحمول في المزايدة (القربة)ومن حيوانٍ يحمل الماء غالبا فأخذ الاسمُ استعارةً، أو إنسانٍ يحمل الماء مستقيا، ثم مالبت أن دلّت على الرجال السادة الذين يحملون الدّيات فسُمُّوا بروايا الدّيات.

قال أبو شأس⁽²⁾ : وَلَنَّا رَوَايَا يَحْمِلُونَ لَنَا أَنْقَالَنَا إِذْ يُكْرَهُ الْحَمْلُ

ونخلص بعد هذا الذي ذكرنا إلى أنه أجز استعارة كلمة الرواية من حمل الماء وحامله سواءً أكان إنسانا أم حيوانا إلى الحمل الأدبي للشعرو فنون القول.

ومن حقّ كلّ قارئ أن يتبادر إلى ذهنه مجموع تساؤلات تتعلق بالرواية، وكيف بدأت؟ وهل كان لرواية الحديث الشريف الأثر الكبير في نشأة رواية الشعر العربي القديم، إننا، إذ نقدّم لهذا المقال، نودّ أن نقول إن حصر زمن هذا الشعر بالعصر الجاهلي قبل الإسلام فقط لهو تجنّ في غير موضعه، إذ أنّنا نسمّيه قديما فقط لأنه يشمل الشعر منذ الجاهلية إلى صدر الإسلام وبدء الدولة الأموية، بل إنّنا لنسند بلاشير الفرنسي، في فهرس محتويات كتابه: تاريخ الأدب العربي حين حدّده بسنة 50 للهجرة، إلّا أنّه سماه الأدب الجاهلي، ونسميه نحن الشعر العربي القديم.

بدايات رواية الشعر

كانت أمة العرب في بدايتها الأولى أمةً جاهلة في الأغلب لا تتوفر على أساليب التدوين والكتابة، فإنّ رجالها كانوا يعتمدون على الذاكرة في حفظ تراثهم الأدبي، وممّا زاد في ذلك الحفظ شغفهم واهتمامهم واستمتاعهم بأفانين القول، ولهذه الأسباب ولغيرها اعتمدوا على ما تتلقفه الذاكرة لتُثَبَّت ما يُلقَى إلى أسماعهم وترغب به نفوسهم، إذ أنّ النصوص الأدبية كانت تُلقَى مشافهةً، وقلّما نجد من الشعراء من دَوّن آثاره الأدبية، وكان جمهور المستمعين من أفراد القبيلة يتلقّون ذلك فيحفظونه بعد سماعه وترديده، وكان أنّ قَوِيّت هذه الموهبة بعد الممارسة والتدريب والتكرار والاستمرار، وزاد في قوتها عدمُ معرفتهم الكتابة – كما ذكرنا – وكذا ميلهم الطبيعي والغريزي إلى حفظ هذه الآثار وصونها لتساعدهم على حفظ أنسابهم وعصبيتهم ومقارعة الخصوم في الحروب والنزاعات من جهة، وفي المباريات الأدبية من جهة أخرى.

والجدير بالذكر أن الرواية في أول عهدها إنما كانت تعني مجرد الحفظ والنقل والإنشاد ولا تتجاوز ذلك إلى التحقيق والتدقيق، كما كانت تعني رواية الشعر فقط " فلما أُصِلّت أصول علم الحديث وأرسيّت قواعده وعُني فيه بالإسناد، وتصدّر المحدّثون للحديث في مجالس العلم من حفظهم، صار يطلّق عليهم أيضا لفظُ الرواية، فصرنا نجد للمحدّثين في آخر القرن الثاني روايةً كما كان للشعراء رواة "⁽³⁾.

ولما كان رواة الحديث يعتمدون على الإسناد لئلا يدخل الزيف والتّحريف في الأحاديث النبوية فقد أخذت الرواية الأدبية مسلكا مشابها في طورها الثاني، حيث ومع اعتمادها على الحفظ والنقل والإنشاد أصبحت تعتمد على الضبط والإنقان والتحقيق والتدقيق والإسناد، وأصبحت هناك مدارس تُعنى برواية الشعر، ويُشرف عليها شيوخ رواة.

ومن كلّ ما سبق نستطيع القول إنّ الرواية الشفوية، في أول أمرها، كانت وسيلةً الجاهليين إلى حفظ أشعارهم وروايتهم، ومن هذه الطّريق وحدها وصل إلينا هذا الكمّ من الشعر الذي لقي حُظوةً وعنايةً من رواة القرن الثاني للهجرة، والذين أخذوا أنفسهم على جمع النصوص الأدبية وشرحها وتدوينها.

كما أنّ هذه الرواية ظلّت إلى زمنٍ طويلٍ بعد الإسلام، مثلها في ذلك مثل الحديث الشريف الذي اعتمد على الرواية الشّفهية إلى نهاية القرن الأوّل للهجرة، بدايةً من عهد الخليفة أبي بكر الصديق الذي وضع «أول شروط هذا العلم، وهو شرط الإسناد الصحيح، إذ احتاط في قبول الأخبار، فكان لا يقبل من أحدٍ إلا بشهادةٍ على سماعه من الرسول ص، والعهد يومئذٍ قريبٌ والصحابَةُ مُتوافرون»⁽⁴⁾.

ولقد كان القدامى يستشعرون خطورة الرواية في نقل الأشعار وشيوعها بين القبائل، متمثلين بها في نواديهم وفي أثناء جلّهم وترحالهم، ومن ذلك قول عُميّة بن جُعيل نادماً على هجائه لقومه والذي شاع في القبائل⁽⁵⁾.

نَدِمْتُ عَلَى شَتْمِ الْعَشِيرَةِ بَعْدَ مَا مَضَتْ وَاسْتَنْبَتَ لِلرُّوَاةِ مَذَاهِبُهُ
فَأَصْبَحْتُ لَا أَسْطِيعُ دَفْعاً لِمَا مَضَى كَمَا لَا يَرُدُّ الدَّرَّ فِي الضَّرْعِ حَالِبُهُ

غير أنّ الأجد بالذّكر، وهو ما نجده في الكتب وأثار العلماء القدامى، من أنّ الرواية الشّفهية كانت تسير جنباً إلى جنبٍ مع التدوين في أولياته، ولكنّ هذا التدوين قليلٌ بالقياس إلى الذين كانوا يعرفون الكتابة من جهة، ومن جهة أخرى إلى المؤونة التي كان يتطلّبها هذا النوع من التّثبيت والحفظ.

لقد كان الرواة - ونقصدهم رواة الشّاعر - هم أوّل من يسمع شعر الشّاعر، فيكتبونه في الصّحف والكراريس، ولكّتهم قبل ذلك يثبّتونه في ذاكرتهم وتعيه صدورهم وينقلونه في النوادي روايةً بالمشافهة لا من طريق القراءة من الصّحف، وقد ظلّت هذه الوسيلة مستمرّةً في القرون الإسلاميّة الأولى، وقد كان الشّعراء ربّما استعانوا برواتهم في كتابة أشعارهم، فيها هو جرير لما همّ بهجاء بني نُمير أقبل إلى بيته، وقال للحسين راويته: "زد في ذهن سراجك اللّيلة وأعدّ ألواحاً ودواة. قال ثم أقبل على هجاء بني نُمير فلم يزل حتى ورد عليه قوله :

فَغَضَّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرٍ فَلَاعِباً بَلَّغْتَ وَلَا كِلَابَا

فقال جرير للحسين راويته: حَسْبُكَ، أطفئ سراجك ونم، فقد فرغت منه "⁽⁶⁾ أي أهلكته، وذكر أحد أحوال الفرزدق قال: "...فجئت الفرزدق ... ودخلت على رواته فوجدتهم يُعدّلون ما انحرف من شعره، فأخذت من شعره ما أردت، ... ثم أتيت جريراً ... وجئت رواته، وهم يُقَوِّمون ما انحرف من شعره، وما فيه من السّناد ... فأخذت منه ما أردت .."⁽⁷⁾ طبقات الرواة:

1- الشّعراء الرواة :

لأريب أنّ أول طبقة اهتمت بنقل الشعر وروايته هم الشّعراء الرواة أنفسهم إذ أنّ الشعر نابع منهم ، صادر عن قرائحهم ، وهم بدورهم يؤلفون مدارس شعريّة قائمة بذاتها تمتاز بخصائص فنيّة تؤلف حلقاتٍ متشابهةً لنتاج كلّ مدرسة. وقد فصل القول في هذا الأستاذ طه حسين في أثناء حديثه عن مدرسة أوس بن حجر في قوله: "وإذن فإذا كان هذا كلّهُ حقّاً فإنّنا بإزاء مدرسةٍ شعريّةٍ معينةٍ أستاذها الأوّل أوس بن حجر"⁽⁸⁾ وهو يقرّر بعد ذلك أنّ للشعر الجاهلي في مضر مدارس، ويذكر بأنّه قد ظفر بواحدة منها واستطاع أن يستكشف بعض خصائصها الفنيّة، ويرشد إلى مدارس أخرى كمدرسة المدينة ومدرسة مكة، ومدرسة الشّماخ بن ضرار التي كانت تنافس مدرسة زهير - فيما يظهر - والحق أن ما ذكره طه حسين فيما يخصّ التنافس بين مدرسة زهير ومدرسة الشّماخ ليس جديداً حيث جاء في الأغاني، وفي أثناء ترجمة

الشَّمَاخ ما دلَّ على هذا التنافس: "قال مزَّرد لأُمِّه: كان كعب بن زهير لا يهابني وهو اليوم يهابني، فقالت: يابني، نعم إنه يرى جَزْوَ الهراش مُوثَّقًا ببابك تعني أخاه الشَّمَاخ" (9)

وقد ذكر القدامى شعراء هذه الطبقة الذين أخذوا عن بعضهم البعض وبدأوها بأوس بن جِرٍّ⁽³⁾ الذي كان زهير بن أبي سلمى راويته وتلميذه⁽¹⁰⁾، وعن زهير أخذ ابنه كعب والحطيئة، وعن هذا الأخير أخذ هذبة بن خشرم⁽¹¹⁾ وعن هذبة أخذ جميل بن معمر العذري، وعن جميل أخذ كثير عزة، الذي قال عنه ابن محلَّم: "آخر من اجتمع له الشعر والرواية كثير"⁽¹²⁾. والقدامى أيضا يذكرون غير هذا، فهم يذكرون أن الأعشى كان راوية لخاله المسيَّب بن عَلس⁽¹³⁾، كما كان أبو ذؤيب الهذلي راوية لساعدة بن جؤية الهذلي⁽¹⁴⁾، وكان امرؤ القيس راوية أبي داود الإيادي⁽¹⁵⁾ يتوكأ عليه ويروي شعره، كما أن مهلهلا كان خاله، وكان المرقش الأكبر⁽¹⁶⁾ عمَّ الأصغر⁽¹⁷⁾ والأصغر عمَّ طرفة بن العبد⁽¹⁸⁾.

ولو تتبعنا بعض هذه السلاسل لوجدنا أن للرحم وللقربى دورا فيها، حيث تربط الأسرة والقبيلة بينهما برابط قوي، مما حدا ببعض الدارسين إلى دراسة الخصائص الفنية التي تجمع كل مدرسة شعرية.

وقد كان طه حسين من السابقين إلى إثارة هذه الدراسة الفنية، وبالتحديد حول مدرسة أوس بن حجر، فدرس شعره وشعر زهير والحطيئة وكعب والنابعة⁽¹⁹⁾.

ولعلَّ ذلك إنما يعود إلى الجاحظ حين ربط بين هؤلاء الشعراء الفحول والذين سمَّاهم الأصمعي "عبيد الشعر"⁽²⁰⁾ لأنهم "قد كان استعبدتهم (أي الشعر) واستفرغ مجهودهم حتى أدخلهم في باب التكلف وأصحاب الصنعة، ومن يلتمس قهر الكلام واغتصاب الألفاظ"⁽²¹⁾

ومن الشعراء الرواة من كان لا يلتزم بشاعر واحد يروي له، ويتلمذ على يده، بل كان يروي لشعراء كثيرين، وأكثر هؤلاء الشعراء الرواة من عاش في القرن الأول للهجرة، وكانوا بحق سلسلة اتصلت فيها الرواية إلى العلماء في القرن الثاني، ومنهم الطرماح والكميت، ورؤبة و ذوالرمة وجريز والفرزدق.

أما الطرماح (ت- 125هـ) فقد كان من فحول الشعراء الإسلاميين وفصحائهم، وصديقا ملازما للكميت بن زيد، هذا الأخير الذي أنشد قول الطرماح:

إذا فُبِضَتْ نَفْسُ الطَّرْمَاحِ أَخْلَقْتُ عُرَى الْمَجْدِ وَاسْتَرَحَى عِنَانُ الْقَصَائِدِ

فقال: إي والله، وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة " (22)

كما كان الكميت (ت- 126هـ)، نفسه عالما بأداب العرب ولغتها وأخبارها وأنسابها، ويذكر صاحب الأغاني خبرا عن إفحام الكميت لحماذ الراوية (ت. 155هـ) حين سأله عن تفسير كلمات في بيتين من الشعر⁽²³⁾.

وكان الطرماح والكميت يأخذان عن رؤبة (ت 145هـ) الغريب ويستعملانه في أشعارهما⁽²⁴⁾ وكان ذو الرمة (ت- 117هـ) مُحَسِّدا من جريز والفرزدق، إلا أنهما شهدا له بالتفوق في حضرة الوليد بن عبد الملك⁽²⁵⁾ وقد روي أنَّ حماد الراوية قَدِمَ على بلال بن أبي بردة، وكان عند بلالٍ ذو الرمة، فأنشده حمادُ شعرا مدحه به، فقال بلال لذي الرمة: "كيف ترى هذا الشعر؟ قال: جيِّدا، وليس له. قال: فمن يقوله؟ قال: لا أدري إلا أنه لم يقله، فلما قضى بلال حوائج حماد وأجازته، قال له: إن لي إليك حاجة. قال: هي مقضية. قال: أنت قلت ذلك الشعر؟ قال: لا. قال: فمن يقوله؟ قال: بعض شعراء الجاهلية،

وهو شعر قديم، وما يرويه غيره. قال: فمن أين علم ذو الرمة أنه ليس من قولك؟ قال: عرف كلام أهل الجاهلية من كلام أهل الإسلام⁽²⁶⁾.

أما جرير (ت- 111هـ) والفرزدق (ت 110هـ) فلعل شهرتهما وشهرة شعريهما جعل علماء القرن الثاني يتكؤون عليهما حين يريدون أن يأخذوا بعض علم الجاهلية وشعرهم.

2- رواية الشاعر:

كان رواية الشاعر في العصر الجاهلي قليلين بالنسبة إلى أمثالهم في العصور الإسلامية اللاحقة، وقد ذهب ناصر الدين الأسد إلى أن هؤلاء الرواة كانوا يلزمون الشعراء " في حلهم وترحالهم، ويحفظون شعرهم ويروونه، وينشدونه في المجالس والمحافل"⁽²⁷⁾ كما كان كل راوية حريصا على تقديم من يروي له، والافتخار به أمام مثلائه من الرواة الآخرين.

غير أن الدكتور إبراهيم عبد الرحمن قلل من أهمية دور هؤلاء الرواة، فهو بعد أن ذكر فرضية ناصر الدين الأسد السابقة رأى أنه " من المبالغة وحسن الظن أن نعول كثيرا على دور هؤلاء الرواة، إن وجدوا، في نقل الشعر الجاهلي، ونرتب على هذا الدور نتائج تتصل بصحة روايته"⁽²⁸⁾.

والظاهر أن وجود رواية لشعراء إسلاميين كجرير والفرزدق⁽²⁹⁾ وكذا راوية كثير عزة وهو السائب بن ذكوان⁽³⁰⁾ وراوية الكُميت بن زيد وهو محمد بن سهل⁽³¹⁾ وراوية الأحوص⁽³²⁾، قلنا إن وجود هؤلاء الرواة ما هو إلا تقليد موروث عما كان عليه الحال في الجاهلية، غير أنه قد بقي لنا من رواية الجاهلية اسم راوية الأعشى الذي اختلفوا فيه. فمنهم من ذكر أن اسمه كان عبدا، وقد " كان عبدا هذا يصحب الأعشى ويروي شعره، وكان عالما بالإبل، وله يقول الأعشى في ذكر الناقة :

لم تعطف على حوارٍ ولم يَفْ طَعُ عَبِيدُ عُرُوقِهَا مِنْ حَمَالٍ⁽³³⁾

وقد ذكر أبو الفرج في الأغاني اسما آخر لراوية الأعشى وهو يحيى بن متى الذي يظهر أنه كان نصرانيا عباديا مُعَمِّرا⁽³⁴⁾ والذي جعل الدكتور شوقي ضيف يذهب إلى أن هذا الراوي " من الممكن أن يكون قد عبث بالديوان فأدخل فيه ما ليس منه ليزيد بعض المعاني المسيحية"⁽³⁵⁾.

ونرجح أنه قد اطمأن إلى هذا الرأي من خلال ماشك فيه ابن قتيبة في القصيدة التي وُسم فيها الأعشى بأنه قَدْرِي تتشابه آراءه وآراء المعتزلة، وهي التي يقول فيها :

اسْتَأْتَرَاللهُ بِالْوَفَاءِ وَبِأَدْلٍ وَعَلَى الْمَلَامَةِ الرَّجُلَا

حيث رأى ابن قتيبة أنها منحولة⁽³⁶⁾

أما الجواليقي في كتابه " المعرب " فقد ذكر اسما ثالثا لراوية الأعشى وهو يونس بن متى وقد أرجع الدكتور ناصر الدين الأسد هذه الأسماء الثلاثة إلى شخص واحد بعينه، وأن اسمه قد أصابه التحريف عند ترجمته ثم نقله إلى العربية⁽³⁷⁾

وهنا نرجع إلى ما قبل سابقا بأن القبائل لم تحفظ أسماء رواة الشعراء، وأن العلماء في القرن الثاني لم تكن لهم عناية بذكر أسمائهم وتوثيقها مما يرجح أن دورهم لم يكن ذا أهمية بالغة كتلك الأهمية التي حازتها الطبقة الأولى. وإن كان هذا في الواقع يبدو طبيعيا، حيث إن الطبقة الأولى نقشت اسمها لما كان لكل راوية منهم شعر خاص به، في حين لم يكن رواية الطبقة الثانية شعراء .

3- رواية القبيلة :

لقد كان للشعر العربي القديم قيمته عند القبيلة إذ يحفظ أنسابها وأيامها ووقائعها، وهو ديوان العرب وسجل مفاخرها، وكانت القبيلة لا تحتفي بشيء قدر احتفائها بنبوغ شاعر لديها، يحمي حماها، ويدود عنها باللسان والسنان، وكانت تتلقى التهاني من القبائل الأخرى، ولعل قصيدة عمرو بن كلثوم " ألا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبِحِينَا " من أهم قصائد الجاهلية التي شغلت الكبير والصغير في قبيلة تغلب " حتى هُجُوا بذلك، قال أحد شعراء بكر بن وائل :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة
قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يزوونها أبداً منذ كان أولهم
يا للرجال لشعر غير مسؤوم⁽³⁸⁾

إنه لمن الطبيعي أن يضطلع أبناء القبيلة في التشهير لشعر شعرائها، يفتخرون به ويرفعون هاماتهم أمام نظرائهم من القبائل الأخرى، بل كانت أكثر من هذا، كانت أشبه بمعركة سلمية يتم فيها التنافس وعرض القوة الأدبية، مما حدا بالعلماء إلى أخذ الشعر من القبائل كمصدر هام في تجميع الآثار الشعرية، واعتبارا من أنه يمثل رواية جماعية لهذا الشعر.

إن في كتب اللغة والتاريخ ودواوين الشعر لأخبارا كثيرة تؤكد مدى أهمية رواية القبيلة في الحفاظ على الإنتاج الشعري، من بينها ما رواه الأصفهاني من خبر عبد الملك بن مروان الذي جلس يعرض أحياء العرب بعد مقتل مصعب بن الزبير، وكان أن تكلم مع رجل من قبيلة جديلة، فسأله عن ذي الأصبع العدواني فأجابه إجابة عالم بالأمر وقال له: " ادن مني فإني أراك بقومك عالما " ⁽³⁹⁾ وأنشده قصيدة ذي الأصبع التي منها: " عذير الحي من عدوان "

وابن سلام يحدثنا عن شعر متمم بن نويرة، والذي أخذ شعره عن حفيده ابن داود بن متمم، يقول: " أخبرني أبو عبيدة أن ابن داود بن متمم بن نويرة قديم البصرة في بعض ما يقدم له البدوي في الجلب والميرة فنزل النحيت، فأتيت أنا وابن نوح العطاردي فسألناه عن شعر أبيه متمم وقمنا له بحاجته وكفيناه ضيغته، فلما نفذ شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويصنعها لنا، وإذا كلام دون كلام متمم، وإذا هو يحتذي على كلامه، فيذكر المواضع التي ذكرها متمم، والوقائع التي شهدها. فلما توالى ذلك علمنا أنه يفتعله " ⁽⁴⁰⁾

ويذكر الدكتور يوسف خليف أن من مصادر شعر الصعاليك القبائل التي كانت تجيرهم حيث يمدحهم هؤلاء الشعراء وبالمقابل يحرض الممدوحون حرصا شديدا "على إذاعته بين العرب لأنه تسجيل لبعض مفاخرهم، وإشادة ببعض أمجادهم، وليس ما يمنع من أن تذيب هذه القبائل ما قاله هؤلاء الصعاليك في قبائلهم التي خلعتهم لأنه فرصة للنيل منها" ⁽⁴¹⁾ ولن نذهب إلى الإطالة في سرد هذه الأمثلة فهي كثيرة .

4- الرواة الوضّاعون :

لقد مرّ الشعر بمراحل عديدة بدءا من الرواية الشفوية إلى التدوين، وقد تناقله رواة عبر أجيال متعددة، منهم الثقات الصادقون، ومنهم الوضّاعون الكاذبون كالذي رأيناه في خبر ابن داود بن متمم بن نويرة.

وبالرغم من الجهود الحثيثة التي قام بها نفر من العلماء الثقات في تنقية هذا الشعر وردّه إلى أصوله وتبيين زائفه وكذبه، إلا أن هناك موجات من الشك تلف بعض موضوعاته.

ولعل الساحة التي كثر فيها هذا الوضع والزيف هي ساحة القصص وأحاديث اللهو والسمر وقصص الخرافات. وكان أن شاع هذا بين خلفاء بني أمية الذين كانوا يجلبون القصص إلى قصورهم يستمعون إلى أحاديثهم فيما يتعلق بأخبار الأمم السابقة وقصص الأنبياء، ثم إن هؤلاء القصص - وخاصة مع بداية القرن الثاني حيث كثرت الفتن - أصبحوا يختلقون الكذب في الحديث وأخبار العرب وأيامهم⁽⁴²⁾، فجهروا العلماء وأصبحت العامة تدور في حلقاتهم، وأول من ذكر في هذا المضمار موسى بن سيار الأسواري الذي قال عنه الجاحظ: "وكان من أعاجيب الدنيا، كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية، وكان يجلس في مجلسه المشهور به، فتقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره"⁽⁴³⁾

وكان هؤلاء القصص يتمثلون في أحاديثهم بالشعر، ومن ذلك ما يروى في كتاب "أخبار عبيد بن شرية"⁽⁴⁴⁾ الذي كان من محدثي معاوية والذي كان يطلب منه أحاديث القدامى وقصصهم، وكان يقول له: "وسألتك ألا تمر بشعر تحفظه فيما قاله أحد إلا ذكرته" ومع أن عبيدا كان لا يقصر في الاستشهاد بالشعر، فقد عاد معاوية يحلف عليه بقوله: "سألتك ألا شددت حديثك ببعض ما قالوا من الشعر ولو ثلاثة أبيات"⁽⁴⁵⁾، بل كان يطلب منه أن يتمثل بشعر قاله يعزب بن قحطان وعاد بن عوص وثمود وأخوه جديس وما قاله لقمان في نسوره السبعة.

ولم تكن أحاديث القصص مقصورة على الخلفاء في قصورهم، بل امتد هذا إلى العامة في الأسواق والمساجد، حيث كان من بين القصص من يتصدر حلقة المسجد، ويفسر للجمهور القرآن الكريم ويستطرد في ذكر أخبار العرب والعجم وأحاديث الغابرين، يستشهد في ذلك بالشعر القديم في أكثر الأحيان، وكان من بين هؤلاء أبو علي الأسواري الذي كان يقص بمسجد في البصرة ستا وثلاثين سنة، ثم جاء بعده القاسم بن يحيى الضير وأبو بشر صالح المري وغيرهم كثير⁽⁴⁶⁾ إذن نكاد نتفق على أن القصص هم من فتح باب الوضع والتزييد في الأخبار عن قصد أو عن غير قصد، وقد يكون هذا الوضع والتزييد مبالغاً فيه بعض الشيء، بل كان من العامة من يقبله مطمئناً دون حذر أو قليل من الشك، وكان هناك أيضاً فئة من الناس تتحفظ بعض الشيء شكاً منها في ثقة القاص من جهة، أو شكاً منها في الموضوع المقصود من جهة أخرى.

وإن كنا نعلم - سلفاً - أن الحديث الشريف - مع ما عليه من قدسية - لم يسلم من الوضع والتزييد، فكيف بهذه الأشعار التي كانت تُنحل ويُزاد فيها حتى امتلأت بها كتب التاريخ والسيرة والمغازي، غير أن العلماء من الرواة الثقة فطنوا لهذا الأمر الخطير وتصدوا له، وبينوا زيف بعض هذه الأشعار ونحلها. وكان من بين هؤلاء العلماء ابن هشام (ت-213/أو 218) الذي نظر في سيرة ابن إسحاق (ت 125هـ) فوجد منها كثيراً من الشعر لا صحة له، فحذف المنحول منه والردية والمقذع وبعض الأبيات من القصيدة اختصاراً.⁽⁴⁷⁾

وجاء بعده ابن سلام (ت 231هـ) الذي قال في ابن إسحاق "وكان ممن أفسد الشعر وهجنه وحمل كل غثاء منه محمد بن إسحاق... وكان من علماء الناس بالسيرة... وكان أكثر علمه بالمغازي والسيرة وغير ذلك، فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: لا علم لي بالشعر أوتي به فأحمله، ولم يكن ذلك له عذراً، فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط، وأشعار النساء فضلاً عن الرجال، ثم جاوز بذلك إلى عاد وثمود. أفلا يرجع إلى نفسه ويقول: من حمل هذا الشعر، ومن أداه منذ ألوف السنين، والله تبارك وتعالى يقول: "فقطع دابر القوم الذين ظلموا" أي لابقية لهم..."⁽⁴⁸⁾ وقال أيضاً: "فلو كان الشعر مثل ما وضع لابن إسحاق ومثل ما رواه الصحافيون ما كانت إليه حاجة ولا فيه دليل

على علم".⁽⁴⁹⁾ كما نقد صاحب الفهرست ابن اسحاق هذا قائلا: "يقال : كان يُعَمَلُ له الأشعارُ ويأتي بها ويُسأل أن يُدخلها في كتابه في السيرة، فيفعل. فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحةً عند رواة الشعر"⁽⁵⁰⁾

5 الرواة العلماء (المحترفون):

مع منتصف القرن الثاني للهجرة ومطلع شمس الدولة العباسية وُجِدَتْ فئةٌ من الرواة العلماء الذين احترفوا رواية الشعر واللغة، وتفرغوا لهما، وأصبحوا يعتمدون على أصول فنية وعلمية في الرواية ، فكان منهم العرب والموالي وبعض من القراء. وكان أن تصدّروا حلقات المساجد يروون الشعر وأخبار الجاهلية وأيامها، ويكفون مؤونة السائل عن اللغة بشرح غريبها وشاذّها وتذليل الصعب منها ورواية الشعر وما يتعلق به من أخبار ومناسبات .

غير أنّ علمهم هذا وسعة أطلاعهم وتبحّره في إنما أخذوه من ارتحالهم إلى البادية يجوبون الصحاري والقفار ويشافهون الأعراب بحثا عن المادة اللغوية شعرا كانت أو لغة أو خبرا، وقد كان هذا الارتحال إلى البادية نتيجة شيوخ اللحن وفساد ألسنة الناس وسليقتهم، وذلك لاختلاط الأعاجم بالعرب.

ومن جهة أخرى فقد رأى هؤلاء العلماء الرواة أصحاب الحديث يقطعون الفيافي والقفار ويذهبون في كلّ حذب وصوب من أجل تأكيد حديث، أو نفيه، فمالهم لا يصنعون صنيعهم، ويضربون أكباد الإبل في طلب اللغة من جفاة الأعراب الفصحاء الضاربين في الصحراء⁽⁵¹⁾ ومن المناطق التي بقي فيها فضل من الفصاحة، لم يجاورها الأعاجم من الفرس والروم والقبط والهند واليمن وغيرهم⁽⁵²⁾.

غير أن هذه الرحلة من الحضر إلى البادية طلبا للغة والشعر أعقبتها رحلة معاكسة، فقد كان أهل البادية من الأعراب يفتنونهم أيضا إلى حيث هؤلاء العلماء يعرضون بضاعتهم من النوادر والغريب والشعر⁽⁵³⁾.

وجديرٌ بنا أن نشير إلى أنّ هذا الارتحال كان في أول الأمر مُلِمًا باللغة والأخبار والشعر من أجل ضبط اللغة العربية، وما عرف بعد ذلك بوضع علمي النحو والصرف، وهذا لغرض مقدّس وهو شرح لغة القرآن الكريم، ولكن سرعان ما اجتهد العلماء الرواة للشعر من أجل طلب الشعر وجمعه لذاته ومن أجل ذاته، منفصلين بذلك عن الغاية الأولى والتي كانت – كما ذكرنا سابقا - تصبُّ كلّها في فهم وشرح ألفاظ القرآن الكريم لتنبثق بعد ذلك – ومن جراء التنافس الشديد بين العلماء الرواة- مدرستان لهما خطرهما في علم الشعر واللغة هما مدرستا البصرة والكوفة واللّتان كان لهما الدور الفعّال في نقل الشعر وتدوينه .

الهوامش:

(1) الزّمخشري. أساس البلاغة. مراجعة وتقديم الأستاذ: إبراهيم قلّاتي. دار الهدى. الجزائر. 1998. مادة " رَوَى " ص: 276.

(2) ناصر الدين الأسد. مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. دار المعارف. مصر. (ط 4). 1969. ص: 189.

(3) الرافعي. تاريخ آداب العرب. المكتبة العصرية. بيروت. ط 1. 2000 م. 228/1.

(4) ابن قتيبة. الشعر والشعراء. دار الحديث، القاهرة عام النشر: 1423 هـ 536.

(5) ناصر الأسد. مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. ص: 191. وهناك خير مشابه عند: الأصفهاني. الأغاني. شرح سمير جابر. دار الكتب

العلمية. بيروت. ط 2. 1992. 35/8.

(6) الأصفهاني. المصدر نفسه . 4 / 255 وما بعدها

(7) طه حسين. في الأدب الجاهلي. دار الكتاب اللبناني. بيروت. 1982. المجلّد: 05. ص: 269 وما بعدها.

(8) ينظر هذا الخبر وآخر غيره في الأغاني: 73/9.

(9) أوس بن حجر (توفي نحو 2 ق- هـ/ نحو 62م) وهو ابن مالك التميمي، أبو شريح، شاعر تميم في الجاهلية ومن كبار شعرائها، في نسبه اختلافٌ بعد أبيه جِجْر، وهو زوج أمّ زهير بن أبي سُلمى، كان كثير الأسفار، وأكثر إقامته عند عمرو بن هند في الحيرة، عُمر طويلاً، ولم يدرك الإسلام، كان غزلاً مغرماً بالنساء. ينظر ترجمته وأخبار عنه في الأغاني 73/11. — ينظر الأغاني 36/10

(10) ابن سلام الجمعي. طبقات فحول الشعراء. تحقيق محمود محمد شاكر. دار المدني جدة. (د ط). (د-ت) 97/1.

على أن صاحب الأغاني يذكر أنه كان لزهير أستاذ آخر هو خاله بِشامةُ بنُ الغدير، وأنَّ بِشامة لما حضره الموت أخذ يقسم ماله بين أهله "فأتاه زهير فقال: يا خاله، لو قسمت لي من مالك، فقال: والله يا ابن أخي لقد قسمت لك أفضل ذلك وأجزله. قال: وما هو؟ قال: شعري ورثتيه... فقال له زهير: الشعرُ شيء ما قلته فكيف تعتد به عليّ؟ فقال له بِشامة: ومن أين جئت بهذا الشعر؟ لعلك ترى أنك جئت به من مُزينة، وقد علمت العرب أن حصاتها وعين مائها في الشعر لهذا الحيّ من غطّافان، ثم لي منهم، وقد رويته عني" — ينظر الأغاني 362/10

(11) هذبة بن خشم (ت نحو 50هـ/ نحو 670م) من بني عامر بن ثعلبة، من قضاة. شاعر فصيح مرتجل رواية، كنيته أبو عمير وهو القائل:

عسى الكرب الذي أمسيّت فيه يكون وراءه فرج قريب

(12) الأصفهاني. الأغاني. 97/8.

(13) المسيّب بن علس بن مالك بن عمرو، من ربيعة بن نزار، شاعر جاهلي، كان أحد المقلّين المفضّلين في الجاهلية، وهو خال الأعشى ميمون، وكان الأعشى راويته، ويؤثر عنه البيت المشهور الذي عابه عليه طرفة حين قال له: استنوق الجمل وهو:

وقد أتتاسى الهَمُّ عند احتضاره يتأج عليه الصَّيْعَرَةُ مُكْدَم

ينظر الأغاني. 246/24.

(14) ابن قتيبة. الشعر والشعراء. 539/2.

(15) أبو داود الإيادي: هو جارية بن الحجاج، شاعر قديم، من شعراء الجاهلية، كان وصافاً للخيل، قال الأصمعي: "ثلاث كانوا يصفون الخيل لا يقاربهـم أحد: طفيل، وأبو داود والجعدى". — ينظر ترجمته في الأغاني 402/16.

(16) المرقش الأكبر: وهو عوف بن سعد بن مالك، أحد المتّمين في الجاهلية، كان يهوى أسماء بنت عوف. توفي نحو سنة: 75 ق. هـ/ نحو 550م.

(17) المرقش الأصغر: وهو ربيعة بن سفيان بن سعد بن مالك، شاعر جاهلي، من أهل نجد، وهو ابن أخي المرقش الأكبر، وعمُّ طرفة بن العبد، أشهر شعره حائيته، وهي إحدى المجمرات ومطلعها: "أمن رَسَم دارِ ماءٍ غَيْبِكَ يَسْفَحُ"

(18) ينظر الأغاني. 136/6.

(19) ينظر في الأدب الجاهلي. مج 5. ص: 270 وما بعدها.

(20) قال الأصمعي "زهير بن أبي سلمى والحطيئة وأشباههما عبید الشعر". الجاحظ. البيان والتبيين. تحقيق وشرح: عبد السلام هارون. دار الفكر. (د.ت) 13/2.

(21) المصدر نفسه. 13/2.

(22) الأغاني. 46/12.

(23) المصدر نفسه. 05/17.

(24) المصدر نفسه. 45/12.

(25) المصدر نفسه. 29/18.

(26) المصدر السابق. 98/6.

(27) ناصر الأسد. مصادر الشعر الجاهلي. ص: 44.

(28) إبراهيم عبد الرحمن. الشعر الجاهلي قضاياها الفنية والموضوعية. لونغمان. مصر. (ط.1). 2000. ص: 44.

(29) ينظر إلى موضوع "رواية الشعر العربي القديم" فقد ذكرنا فيه خبراً يُذكر فيه رواية جرير والفرزدق. الأغاني. 255/4.

(30) الأغاني. 258/9 " ... حدثني سائب راوية كثير قال ...".

(31) المصدر نفسه. 2/ 404 و 417. " ... حدثني محمد بن سهل الأسدي راوية الكُميت ... " و " ... عن محمد بن سهل راوية الكُميت ... "

(32) المصدر نفسه. 4/ 238. وفيه " ... فأقبل الأحوص على راويته فقال ...".

(33) الأغاني. 24/ 231 " ... أخبرني عُبيد راوية الأعشى ...". (الحوار: ولد الناقة — الخمال: داء يصيب القوائم)

(34) المصدر السابق. 132/9.

(35) شوقي ضيف. العصر الجاهلي. دار المعارف. مصر. ط 18. 1995. ص: 340.

(36) ابن قتيبة. الشعر والشعراء. 70/1.

(37) ينظر: ناصر الأسد. مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. ص: 241.

(38) الأغاني. 11/ 57.

(39) المصدر السابق. 3/ 89.

(40) ابن سلام. طبقات فحول الشعراء. 48/1.

(41) يوسف خليف. الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي. مكتبة غريب. مصر. (د ط). (د-ت). ص: 151.

(42) ينظر الخبر عن القصص في: الرافعي. تاريخ آداب العرب. 319/1 وما بعدها.

(43) الجاحظ. البيان والتبيين. 1/ 368.

(44) ينظر الخبر عن عبيد بن شربة الجرهمي في: ابن النديم. الفهرست. دار المعرفة. بيروت. 1978. ص: 132.

(45) ناصر الدين الأسد. مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. ص: 599 وما بعدها.

(46) ينظر في ذكر القصص: الجاحظ. البيان والتبيين. 1/ 368 وما بعدها.

(47) ينظر منهج ابن هشام في توثيق شعر السيرة وتنقيحه إلى:

- شوقي رياض. شعر السيرة النبوية. دار المأمون. مصر. ط. 1. 1987. ص: 215 وما بعدها.

(48) ابن سلام. طبقات فحول الشعراء. 7/1 وما بعدها. والسّيوطي. المزهري في علوم اللغة وأنواعها. دار الكتب العلمية. بيروت. ط. 1. 136/1.

(49) المصدر نفسه. 11/1.

(50) ابن النديم. الفهرست. ص 136. وفيها ترجمة ابن إسحاق ومنها: " أنه مطعون عليه غير مرضي الطريقة، وكان يحمل عن اليهود والنصارى، ويسمهم في كتبه أهل العلم. وأصحاب الحديث يضغفونه ويتهمون، توفي سنة خمسين ومائة ".

(51) ينظر أخبار وأسماء الفصحاء العرب المشهورين الذين سمع منهم العلماء في: الفهرست. ص: 65-74. ومن هؤلاء أبو عرار وأبو زياد الكلابي، وكان قد وفد إلى بغداد أيام المهدي، وأبو الجاموس ثور بن يزيد، وكان يفد إلى البصرة، وأبو مسحل، وقد وفد على بغداد، وكانت له مناظرات مع الأصمعي، وأبو ضمضم الكلابي ورواية الشعر عباد بن كسيب.

(52) جاء في المزهري للسيوطي في فصل عقده حول معرفة الفصيح. 1/ 167 وما بعدها، نقلا عن كتاب " الألفاظ والحروف " لأبي نصر الفارابي ما منه " ... وبالجمله فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولهم، فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقيط ولا من قضاة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام ... ولا من تغلب واليمن فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان، ولا من بكر لمجاورتهم القبط والفرس، ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم. والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها في كتاب قصيرها علماً وصناعة هم أهل البصرة والكوفة فقط من بين أمصار العرب " - وينظر أيضا الخصائص لابن جني في باب عقده بعنوان: " ترك الأخذ عن أهل المدر كما أخذ عن أهل الوبر " في: ابن جني. الخصائص. تحقيق. محمد علي النجار. عالم الكتب. بيروت. (د ط). (د-ت) 2/ 05.

(53) في كتب الأدب أخبار جمّة عن هاتين الرحلتين، وما يتعلق بها من الأخذ من الأعراب واختبارهم، ومن ذلك ما نجده في: تاريخ آداب العرب للرافعي 270/1 وما بعدها.

مصادر المقال:

إبراهيم عبد الرحمن. الشعر الجاهلي قضاياها الفنية والموضوعية. لوانجمان. مصر. (ط. 1). 2000.

الأصفهاني. الأغاني. شرح سمير جابر. دار الكتب العلمية. بيروت. ط. 2. 1992.

الجاحظ. البيان والتبيين. تحقيق و شرح: عبد السلام هارون. دار الفكر. (د.ت)

ابن جني. الخصائص. تحقيق. محمد علي النجار. عالم الكتب. بيروت. (د ط). (د-ت)

الرافعي. تاريخ آداب العرب. المكتبة العصرية. بيروت. ط. 1. 2000م.

الزّمخشري. أساس البلاغة. مراجعة وتقديم الأستاذ: إبراهيم قلّاتي. دار الهدى. الجزائر. 1998.

ابن سلام الجمحي. طبقات فحول الشعراء. تحقيق محمود محمد شاكر. دار المديني جدة. (د ط). (د-ت).

السّيوطي. المزهري في علوم اللغة وأنواعها. دار الكتب العلمية. بيروت. ط. 1.

- شوقي رياض. شعر السيرة النبوية. دار المأمون. مصر. ط1. 1987.
- شوقي ضيف. العصر الجاهلي. دار المعارف. مصر. ط18. 1995.
- طه حسين. في الأدب الجاهلي. دار الكتاب اللبناني. بيروت. 1982. المجلد: 05.
- ابن قتيبة. الشعر والشعراء. دار الحديث، القاهرة عام النشر: 1423 هـ.
- ناصر الدين الأسد. مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية. دار المعارف. مصر. (ط 4). 1969.
- ابن النديم. الفهرست. دار المعرفة. بيروت. 1978.
- يوسف خليف. الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي. مكتبة غريب. مصر. (د ط). (د-ت).